مخطوطات عربية

عن المخدرات والتدخين

الدكتور عادل البكري

عرفت المخدرات كالخشخاش والأفيون منذ أقدم العصور واستعملت لأغراض طبية. واستعملها الأطباء العرب على نطاق واسع في التخدير عند إجراء العمليات الجراحية وفي تسكين الآلام الشديدة، وذكروها في أكثر كتبهم الطبية. وقد استعملوها شراباً ولبوقات ومعاجين، غير أنهم مع ذلك لم يؤلفوا كتاباً واحداً عنها على ما عرف عنهم من غزارة التأليف في مختلف المسائل الكبيرة والصغيرة.

أما استعمال المخدرات في غير نطاق الاستعمال الطبي فيبدو أنه استعمال نادر لا سيما أن هذه المواد لم تعرف في البلاد العربية إلا في زمن متأخر نسبياً ويؤكد ذلك ابن تيمية بقوله: إن الأئمة الأربعة لم يتكلموا فيها لأنها لم تكن موجودة في عصرهم. وقد شاع استعمالها في زمن الحشاشين وهم فرقة إسماعيلية ظهرت في بلاد فارس وكانت غايتهم السيطرة على الحكم في البلاد الإسلامية، فاستعملوا الحشيش كمخدر للوصول إلى اللذات الحسية. وقد استفحل أمرهم حتى سقطت قلعتهم بيد المغول ثم قضي عليهم نهائياً من قبل المماليك. ثم أصبح استعمال الحشيش بعد ذلك استعمالاً فردياً وبصورة سرية خوفاً من السلطات الحاكمة آنذاك، وخوفاً من الاتهام بالانضمام إلى الفرق الباطنية، وقد يكون ذلك هو السبب في عدم وضع مؤلفات عن الأفيون والحشيش في الوقت الذي وضعت فيه عشرات التصانيف عن الخمر وآدابها وصناعتها وأسمائها وما يتعلق بها. حتى أصبح من النادر جداً أن نجد وصفاً أدبياً أو قطعة شعرية عن المخدرات، فضلاً عن أن نجد كتاباً كاملاً عنها. ولعل وصف ابن الوحيد للحشيش يعد من الأشعار القليلة

عن هذه المادة وربما كان من أقدم آدابها . وابن الوحيد هذا هو الكاتب الأديب شرف الدين محمد بن الوحيد الدمشقي المتوفى سنة ٧١١ هـ (١٣١١ م) فهو يقول في وصف الحشيش .

وخضراء لا الحمراء تفعل فعلها   لها وثبات في الحشا وثبات

تؤجج ناراً في الحشا وهي جنة   وتبدي مرير الطعم وهي نبات

ويظهر من وصفه هذا أنه كان يستعمل هذه المادة وأنه يفضلها على الخمر التي يرمز لها بقوله (الحمراء) .

أما بعد ذلك وفي القرون المتأخرة فيظهر أن هناك اتجاهاً أكثر من السابق في كتابة بعض المؤلفات عن المخدرات ويوجد في الوقت الحاضر بعضها نذكر منها ما يلي :

١ — زهر العريش في أحكام الحشيش : لبدر الدين محمد بن بهادر الزركشي ، المتوفى سنة ٧٩٤ هـ (١٣٩٢ م) ، وتعد من أقدم المخطوطات عن الحشيش . أولها : « أحمد الله على إتمامه . . . وبعد فهذه فصول في الكلام على الحشيشة اقتضى الحال شرحها ، في اسمها ووقت ظهورها ، والأطباء يسمونها : القنب الهندي ، ومنهم من يسميها ورق الشهدانج » وهي تبحث في مضار هذه المادة وتأثيرها السيء على العقل والجسم وبيان حكم الشريعة في تحريمها . وقد جاء ذكر هذه المخطوطة في كشف الظنون وفي تاريخ بروكلمان ، ويوجد نسخة منها في الخزانة التيمورية بالقاهرة كتبها أحمد بن محمد بن سالم الرحبي سنة ٨٨٢ هـ (١٤٧٧ م) .

٢ — قمع الواشين في ذم الراشين: لنور الدين أبي الحسن علي المعروف بابن الجزار المصري وقد فرغ من تأليفه سنة ٩٨٤ هـ (١٥٧٦ م) . وهذا الكتاب يبحث هو الآخر في مضار المخدرات التي تحضر بشكل معجون يسمى (البرش) وهو معجون عطري يصنع من الفلفل الأبيض والأسود وأوراق نبات القنب والأفيون وغيرها ويخالط بسائل حلو كالعسل .

وهذا الكتاب يشتمل على بابين : يبحث الأول منها في بيان تحريم استعماله ، ويبحث الثاني في الأجزاء التي يتركب منها . أوله : « الحمد لله الذي حمى هذه الأمة من الخسف والمسخ ووقاها » . ويوجد نسخة خطية منه يرجع تاريخها إلى سنة ١٠٥٤ هـ (١٦٤٤ م) في الخزانة التيمورية بالقاهرة .

أما التدخين فلم يعرف إلا في وقت متأخر جداً بالنسبة للمخدرات فقد أدخلت أوراق التبغ إلى أوربة عام ١٥٥٦ م بواسطة البحارة القادمين من جزر الهند الغربية واستعملت في أول الأمر للزينة وللأغراض الطبية ، ثم انتشرت عادة التدخين في أوربة عام ١٥٨٦ م ومن هناك انتشر إلى بقية بلاد آسية وإفريقية وعرفته البلاد العربية حيث زرع في مصر لأول مرة عام ١٥٨٩ م وانتشر في بقية البلدان العربية . وقد استقبله الناس فيها بكثير من الريبة والحذر واختلفوا في شرعيته وأمر تحليله وتحريمه ومضاره وفوائده ووضعوا في ذلك كتباً عديدة ، فهو من الناحية الأدبية أحسن حظاً من المخدرات التي لم يكتب عنها سوى القليل . ويوجد الآن من المخطوطات القديمة التي تبحث في موضوع التدخين ما يلي :

١ — رفع الاشتباك عن تناول التنباك : لعبد القادر بن محمد الحسيني الطبري ، المتوفى سنة ١٠٣٣ هـ (١٦٢٤ م) . قال في مقدمته : « قد ظهر في هذه الأزمان القريبة نبات يسمى التنباك ويقال له طابه وتتن ، وهو أنواع مختلفة باعتبار البلدان التي ينبت أو يستنبت فيها ، ويختلف طعمه ولونه وطبعه بذلك الاعتبار أيضاً . ويبحث الكتاب في الحكم الشرعي لتناوله ، وآراء الفقهاء في تحليله وتحريمه.وقدذكره بروكلمان ، كمايوجد نسخةخطية منه فيالخزانة التيمورية بالقاهرة .

٢ — رسالة في تحريم الدخان : لعبد الملك بن جمال الدين العصامي ، المعروف بالملا عصام ، المتوفى سنة ١٠٣٧ هـ (١٦٢٧ م) . أولها : « بسم الله العزيز الغفور الذي لا تخفى عليه خافية » . وهي تبحث في أسباب تحريم التدخين واختلاف الناس في تحليله وتحريمه وكراهيته . وكان قد فرغ من تأليفها في ١٩ رمضان سنة ١٠٣٥ هـ . يوجد نسخة خطية منها في الخزانة التيمورية بالقاهرة كتبت بخط عيسى بن محمد سنة ١٣٠٥ هـ (١٨٨٨ م) .

٣ — الصلح بين الإخوان في حكم إباحة الدخان(١) : لعبد الغني بن إسماعيل النابلسي المؤلف الصوفي الدمشقي ، المتوفى سنة ١١٤٣ هـ (١٧٣١ م) وهو يحاول في كتابه هذا أن يخفف من الحملة القائمة آنذاك ضد التدخين وأن يبين أن لاستعمال الدخان فوائد مختلفة وأنه ليس هناك محذور شرعي في التدخين فقد قال في أول الكتاب : « الحمد لله الذي جعل استعمال دخان التتن نافعاً بتجفيفه الرطوبات الزائدة في الأجسام » .

يوجد نسخة خطية منه في مكتبة المتحف العراقي ببغداد برقم ٧٤٧ يرجع تاريخها إلى سنة ١١٥٠ هـ ، ونسخة أخرى في مكتبة الأوقاف ببغداد برقم ٣٥٨٨ يرجع تاريخها إلى سنة ١٢٤٣ هـ منقولة عن النسخة الأصلية التي كتبت سنة ١٠٩٢ هـ . وهذا الكتاب كان قد ذكره بروكلمان في تاريخه .

٤ — هدية الإخوان في شجرة الدخان : للسيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي ، المتوفى سنة ١٢٠٥ هـ (١٧٩٠ م) . أوله : « الحمد لله ذي الفضل والإحسان .... أما بعد فهذه نبذة صغيرة التمس مني تأليفها بعض الإخوان في ما يتعلق بشجرة الدخان ، من تحقيق اسمها المعروف بين الأعيان ، وما لها من الخواص والمنافع على مر الأزمان ، وما لها من الحكم الشرعي في استعمالها عند فقهاء العصر والأوان » .

يوجد نسخة خطية منه في الخزانة التيمورية بالقاهرة كتبها عيسى بن محمد سنة ١٢٩٥ هـ . وقد جاء ذكره في إيضاح المكنون وتاريخ بروكلمان .

٥ — صرف الربح الثمن عن مستعمل التتن : لداود بن سليمان البغدادي ، فرغ من تأليفه في ١٩ رجب سنة ١٢٧٣ هـ (١٨٧٥ م) ببغداد ، وهو يهاجم فيه التدخين ، أوله : « الحمد لله الذي نزهنا من نتن التتن وقذره » .

يوجد نسخة خطية منه في الخزانة التيمورية بالقاهرة .

٦ — رسالة في الدخان : مؤلفها مجهول ، وهي تبحث في تحريم التدخين مع تثبيت أقوال الفقهاء في تحريمه . أولها : « اعلموا أيها الإخوان في الدين ، الدخان حرام بنص القرآن كقوله تعالى : ويحرم عليكم الخبائث ، لأن الدخان خبيث » .

توجد نسخة خطية منها في مكتبة المتحف العراقي ببغداد برقم ٤/٣٢٩

الدكتور عادل البكري

(١) طبعه بدمشق عام ١٣٤٣ هـ الأستاذ محمد أحمد دهمان .